

الجدل بين الفطري والمكتسب منه خلال "مقال في الفهم البشري" لـ لوك - الكتاب الأول

مـــبروك طـــطاع

أستاذ محاضر، قسم الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية
والإنسانية، جامعة زيان عاشور، الجلفة، الجزائر

المخلص

هناك جدل كبير فيما يتعلق بأصل الأفكار ومصدرها، إذا ما كان أي من أفكارنا فطرياً أو مكتسباً، تولد معنا وتوجد بصورة طبيعية في عقولنا، أم أنها كلها تأتي من التجربة. يرفض الفيلسوف لوك في الكتاب الأول من عمله "مقال في الفهم البشري" كل ما هو فطري، ويهاجم مذهب المعرفة الفطرية ويقر بأن كل أفكارنا مكتسبة من التجربة. والسؤال الأساسي الذي يجب طرحه هو: من يقصد لوك بهجومه هذا؟

الإجابات المقدمة اليوم عن هذا السؤال مربكة إلى حدّ ما وغامضة. وجهة النظر الشائعة من مؤرخي الفلسفة، أو الإجابة التقليدية المقدمة والتي هي محل قبول الأغلبية، هي أن مذهب الأفكار الفطرية، الذي ناقضه لوك كان متعلقاً بالنظرية التي أيدها ديكارت، وهذا يعني أن الهجوم المشهور كان موجهاً ضد ديكارت والديكارتية بالأساس. ونحن نعلم أن الشخص الوحيد الذي ذكره لوك في عمله هو هاربارت أف تشاربري.

لكن عندما ندرك كم يدين لوك لديكارت، وعندما نعيد اكتشاف العناصر العقلية في كتاباته، وعندما نختبر أيضاً مفهوم الفكرة الفطرية بنحو أوثق عند ديكارت، عندها نشعر بأن الإجابات المقدمة لم تكن بالمرضية.

مقدمة

تبدو العلاقة بين المفكرين والاتجاهات والمدارس في الفلسفة من أكثر المسائل المطروحة للنقاش، والأكثر تعقيداً؛ إذ يصعب الفصل في كثير من الأحيان في قضاياها بصورة نهائية ودقيقة، وهي مسألة بالغة الأهمية؛ لما تنطوي عليه من قضايا تتعلق بمسائل التقليد والإبداع. ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى التأثيرات الأساسية على مسار تفكير الفيلسوف، أو ما يمكن تسميتها بالجذور الفكرية التاريخية التي ورثها عن غيره، سواء من الخط الذي ينتمي إليه، أو من مفكرين واتجاهات فكرية أخرى. لكن ما وقر في عقول كثير من الناس بعض الأحكام المتوارثة والمقبولة بمجرد شيوعها بين عامة الناس حتى الدارسين منهم، من دون تبيان لأصلها أو حقيقتها. ومن أهم تلك الأحكام، وهو موضوع مناقشتنا هذه، أن الجدل بين ما هو فطري وما هو مكتسب في عمل لوك المهم "مقال في الفهم البشري"، الكتاب الأول منه المتعلق بـ "*Neither Principles Nor Ideas are Innate*"، والمعروف بهجوم لوك على المعرفة الفطرية، كان المقصود منه هو الفيلسوف ديكارت والديكارتيية بالضبط، وكأن هذه القضية قد فصل في حقيقتها وأضحت يقيناً؛ مما دفعنا هذا إلى محاولة استجلاء بعض جوانبها، وذلك من خلال الاعتماد على نصوص لوك وبخاصة في كتابه الأول من عمله من جانب، وبعض نصوص ديكارت من جهة ثانية، ومن خلال الاعتماد على بعض الدراسات الغربية التي تناولت هذا الموضوع ومقارنتها بعضها ببعض، ونحن ندرك في هذا مدى الصعوبة التي تواجهنا.. فالموضوع بخصوصيته هذه يمثل للباحث هاجساً يتطلب التنقيب والفحص. وهكذا، فالإشكال الذي حرّك هذا البحث ووجهه هو: ما صور الحاجة التي قدّمها لوك في كتابه الأول من "المقال" ضد وجود مبادئ وأفكار فطرية؟ ومن قصده بهجومه على المبادئ الفطرية؟ هل يكون "ديكارت" هو من قصده "لوك" بهجومه كما يشاع في كثير من التأويلات؟

1 - جون لوك وبلورة هجومه على المبادئ الفطرية

لم يشذ "جون لوك" *John, Locke* (1632-1704) الفيلسوف الإنجليزي، ومؤسس المذهب التجريبي، عن هذا الاعتبار المتعلق بقضية التأثير. السنة التي ولد فيها من السنوات

المهمة في تاريخ أوروبا الغربية على وجه العموم، وبريطانيا على وجه الخصوص؛ فهي تمثل مرحلة انتقالية من حالة الاعتقادات المسيطرة إلى تحقيق الحرية، التي استمرت طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر. عاصر كل من الفيلسوف العقلاني "سبينوزا"، و"ليبتز"؛ فقد ولد في السنة التي ولد فيها "سبينوزا"، وكان مولد "ليبتز" صاحب الخصومة الشهيرة لـ"لوك"، وصاحب المناقشات الفلسفية الكبيرة بعده بأربع عشرة سنة، أما "بيكون" فقد توفي بست سنوات قبل مولد "لوك"، في حين توفي "شكسبير" *Shakespeare* بست عشرة سنة قبل شهر أوت الذي ولد فيه "لوك"، وقتها مازالت بقايا الفلسفة الوسيطة... والأشعار الميتافيزيقية سائدة في بريطانيا وأوروبا⁽¹⁾. أما "ديكارت" فقد كان متأملاً في هولندا في سنوات ميلاد "لوك"، وأصدر معظم كتبه الفلسفية وأهمها هناك: "المقال في المنهج"، و"التأملات في الفلسفة الأولى"، و"مبادئ المعرفة البشرية"، و"لوك" لا يزال حينها في مرحلة الصبا. وقد توفي "ديكارت" قبل أن يغادر "لوك" مدرسة "وستمنستير"؛ وفي تلك الفترة أصدر "هوبز" كتابه المهم: "رسالة في الطبيعة البشرية" سنة 1642، وكتاب "لوفيثيان" (*Leviathan*) سنة 1651. وتبعت هذه الكتب بعرض "غاسندي" الذي دافع فيه عن نظرية "أبيقور"⁽²⁾. هذا التقارب الزمني والمكاني لم يكن "لوك" بمعزل عنه، ومثل له ذلك إطاراً عاماً فكرياً ساد أوروبا في تلك السنوات، وأثر على تاريخ الفكر الفلسفي الحديث، وحتى المعاصر منه.

يذكر النقاد ومؤرخو الفلسفة أن "لوك" قد قرأ للفيلسوف الروماني "شيشرون" (*Cicero*) (43-106 ق.م)، وأطلع على التراث الفلسفي للعصر الوسيط؛ فورث الكثير من المصطلحات والتصورات الفلسفية الرئيسية من قبيل الجوهر، والأعراض، والكيفيات، والماهية، والجنس، والكليات التي احتوتها "المقالة"⁽³⁾. والواقع أنه بقدر ثورته ضد كل السلطات بشتى أنواعها، بما فيها السلطة المعرفية الموروثة، كان هناك تأثير أكثر مما كان "لوك" نفسه واعياً بها⁽⁴⁾. وفي العصر الحديث تأثر بكتب "ديكارت"، و"بيكون"، و"هوبز" بصورة مباشرة أو غير مباشرة، شأنه في ذلك شأن كل مفكري بريطانيا وفلاسفتها في تلك الفترة، ويذكر "لوك" - على وجه الخصوص - "روبرت بويل" *Robert Boyle* (1627-1691) و"رينيه ديكارت". يأخذ، هذا الأخير، مكانة مهمة في حياة لوك الفلسفية؛

تّمّا وُلد كثيراً من التأويلات للعلاقة بين الفيلسوفين، لا يبرح أحدها القول: إن لوك قد تأثر أيّما تأثر بديكارت في كثير من مناحي فلسفته، ولم يكن هو المقصود بالهجوم. أمّا التأويل الثاني وهو الشائع بين المفكرين وفي كتب تاريخ الفلسفة؛ إذ تجعل هذه التأويلات من ديكارت الخصم المشار إليه في هجوم لوك على المبادئ الفطرية، وصورة هذه الخصومة تبرز بتجلياتها في صورة الجدل بين ما هو فطري وما هو مكتسب.

إنّ الجدل بين ما هو فطري وما هو تجريبي في القرنين السابع عشر والثامن عشر يعدّ واحداً من أهم النقاشات الفلسفية المتشابكة والغامضة، ومن أشهرها أيضاً. والخلاف الحاصل بين الفلاسفة الفطريين والفلاسفة التجريبيين، وعلى وجه الخصوص بين ديكارت ولوك، يمكن أن يعبر عنه بالقول: إن فريقاً اعتبر بعض [الأفكار أو كلها] هي فطرية، في حين اعتبر الفريق الآخر أن كل الأفكار مشتقة من التجربة. كتب إسحاق واطس *Isaak Watts* (1748-1674) في منطقته المعروف بـ "الاستعمال السليم للعقل" سنة 1726: "هناك جدال كبير، فيما يخص مصدر الأفكار، ما إذا كان أي من أفكارنا فطري أم لا. يولد معنا وينتمي طبيعياً لعقولنا. ينفي لوك ذلك تماماً، أمّا آخرون فيؤكّدون ذلك وبشكل إيجابي" (5).

الصورة النهائية للعمل، التي قدّمها لوك في هجومه على المبادئ الفطرية في الكتاب الأول من عمله المهم "المقال"، مرّت بتطور يمكننا الإشارة إليه هنا بصورة سريعة، حتى ندرك جوانب من حقيقة هذا الهجوم على المبادئ الفطرية. نعلم أنّ لوك افتتح كتابه "الفهم البشري" بهجوم مفصل على المعرفة الفطرية، لكن هذا العمل لم يكن على صورته النهائية التي نعرفها منذ البداية التي نجدها في الكتاب، وللتذكير إنّ "لوك" ترك ثلاث مسودات: اثنتان كتبنا سنة 1771؛ أي تسع عشرة سنة قبل ظهور المقالة، أما الثالثة فقد ظهرت سنة 1685؛ ففي المسودة المعروفة بـ (draft A) لسنة 1671، ولعرض حجة التجريبية، أضاف لوك اعتراضين، أحدهما تعلق بكون المعرفة يمكن أن نحصل عليها فطرياً، هذا الاعتراض قدّمه لوك ونقده في مبحث واحد فقط، ويقبل فيه وبسرعة قضية أن معرفتنا ليست كلّها حسية. بل يقر بأنّ للعقل دوراً في ذلك، ذلك؛ أنّ معرفة الكثير من القضايا لن نكتشفها بحواسنا. ومع هذا يقدم عبارات موجزة يبيّن فيها لوك خطأ النظرية الفطرية (6).

وبعد أشهر قليلة بدأ لوك كتابة المسودة الثانية من الكتاب (*draft B*) وشعر لوك فيها بأن دعوى المعرفة الفطرية بحاجة إلى فحص شامل، وكرّس لذلك ثلاثة عشر مبحثاً في بداية الكتاب، واللافت في هذا أنه لم يقدم موقفه بقدر ما كان يهاجم الموقف الآخر.

وعلى الرغم من اعتراضات غاسندي *Pierre Gassendi* (1592-1655) وأتباعه على مذهب الأفكار الفطرية، فإن هذا المذهب قد كسب الكثير من التأييد خصوصاً في القرن السابع عشر في كل من الفلسفة القارية في فرنسا وألمانيا، وفي بريطانيا أيضاً. وعندها شعر لوك أن الوقت مناسب بضرورة أن يعيد تقديم فحص شامل للنظرية، ومن ثم كانت خلاصة إعادة فحصه النهائية ليقدم حجته ضد الأفكار الفطرية في النسخة النهائية والأصلية لتستغرق الكتاب الأول كله من "الفهم البشري"، باستثناء الفصل التمهيدي. أمّا الفرق الأساسي بين ما ورد في الكتاب الأول والمسودة (B)، فيما يخص الأفكار الفطرية، فهو أن في المسودة يبدأ بمناقشة المبادئ الفطرية العملية (*Practical*)، ثم يتبعها بالمبادئ التأملية (*Speculative*)، بينما في عمله "الفهم البشري" يعكس العملية؛ إذ يبدأ بالمبادئ التأملية ثم تليها العملية⁽⁷⁾.

2 - بين لوك وديكارت أو رفض لوك للمبادئ الفطرية

قبل أن نناقش جدل الفطري والمكتسب أو التجريبي، أو علاقة لوك بديكارت من خلال ما يعرف بهجوم لوك على المبادئ والأفكار الفطرية، دعنا نقدم صورة المحاجة التي استند إليها لوك في رفضه هذا، سواء للمبادئ الفطرية التأملية أو المبادئ الفطرية العملية، كما أننا نقدم حججاً أخرى أوردتها لوك في نقده هذا عند الحديث عن العلاقة بين الفيلسوفين لاحقاً.

2-1- الحجج التي قدمها لوك في رفضه للمبادئ الفطرية

يبدأ لوك عمله بالإشارة إلى الرأي الشائع بين بعض الناس حول وجود مبادئ فطرية. يقول لوك: "إنّ هناك في الفهم بعض المبادئ الفطرية، بعض المفاهيم الأولية (*Primary notions*) والحروف (*Characters*)، كما لو أنّها طبعت على عقل الإنسان منذ أن وجد

وجاء بها إلى العالم " (8). وأول ما اعتمد عليه أنصار الأفكار الفطرية من حجج، كما قدمها لوك، حجة الاتفاق العام، لكن ردّ لوك تمثل في أنّه حتّى لو كانت هناك بعض الحقائق، وكانت محل اتفاق بين الناس، فهذا الاتفاق لا يبرهن - بأي حال - من الأحوال - على فطريتها. يقول لوك: " فحجّة الإجماع لا تثبت فطرية الأفكار؛ لأنّه قد تمّ الحصول عليها بنفس الطريقة " (9). لكن لا يوجد أصلاً مثل هذا الاتفاق وهذه الحقائق الكلية المقبولة. حتّى المبادئ الأكثر -أهمية مثل مبدأ الهوية ومبدأ عدم التناقض - ليست محل اتفاق الكل. فلو كانت فطرية مغروسة في العقل فمن الأكيد أن تكون موجودة في تفكير كل واحد، لكنّها ليست كذلك، فالغالبية من الناس كالأطفال والبلهاء مثلاً، لا يعرفون شيئاً عن هذه المبادئ، ومن ثمة لا يمكن أن تكون فطرية. يكفي الإنسان " استعمال قواه الطبيعية وحدها ودون اللجوء ومساعدة ما يعرف بالانطباعات الفطرية لكي يحصل على المعرفة " (10).

ومع أنّ هناك محاولة تبذل للهروب من هذا النقد الذي وجّهه لوك، وهو أنّه يمكن أن يقال إنّ لدينا جميعاً القدرة الكامنة على معرفة هذه المبادئ الفطرية، وهذا يعني أنّه إذا كنّا نملك منذ البداية المقدرة لكي نعرف هذه المبادئ، فإنّ لوك لا يفرض وجهة النظر هذه، بل يتفق تماماً مع هذه الرؤية؛ أي يقبل لوك بالقدرات الفطرية⁽¹¹⁾. لكن إذا كان المقصود أكثر مما يفهم عادة، مثلاً إذا كانت القضية الشيء هو نفسه [مبدأ الهوية] موجودة بصورة كامنة في العقل ولكنها لم تصبح صريحة إلا بعد النضج، فإنّ لوك يردّ بصراحة: "... لا وجود لقضية يمكن أن يقال عنها إنّها موجودة في العقل، ولا يعرفها العقل، ولم يكن على وعي بوجودها " (12). أي أنّ هذا التأكيد على أنّ النفس ليست على وعي بهذه الأفكار التي تتضمّنها غير مبررة عند لوك. هذه المحاولة، بالنسبة إلى لوك، تبدو متناقضة عندما ننظر إلى مفهوم العقل الذي يتألف من الوعي بالفكرة. يقول لوك: " يبدو لي القول بوجود حقائق مطبوعة على النفس و لا تدركها أو تفهمها النفس قريب من التناقض... بالنسبة لي الفكرة المطبوعة على العقل وبدون أن يدركها العقل بالكاد تكون قابلة للفهم... لا عبارة يمكن أن تقال على ما في العقل ما لم تكن معروفة لديه، ويكون على وعي بها " (13). أمّا إذا فهمت أيضاً على أساس أنّنا سندرك هذه المبادئ حالما نبلغ سن النضج، يردّ لوك إنّنا سنعرف أيضاً أنّ $12=5+7$ حالما نبلغ النضج، لكن لا أحد ينبغي له أن يفترض أنّ هذه العملية الحسابية

هي معرفة فطرية⁽¹⁴⁾. وحتى لو كانت هناك قضية فطرية من دون أن تكون معروفة، فلا نملك، إذن، وسيلة للتمييز بين الحقائق.. فحقيقة الفكرة الفطرية هي أن نكون على وعي بمعرفتها؛ أي أن تكون قابلة لأن تُعرف، وفي هذه الحال كل القضايا الصحيحة هي فطرية. ولذلك يجب أن نفهم الفكرة الفطرية على أنها فكرة نعيها بالأساس⁽¹⁵⁾.

الأطفال بذلك لا يملكون وعياً يمثل هذه المفاهيم الأصلية، والاتفاق العام ناقص لديهم. لقد اتفق على أن كل الناس لديهم اتفاق على بعض الحقائق حالما هم يستعملون عقولهم؛ هذا يعني واحداً من أمرين: إما أن الناس قد اكتشفوا هذه القضايا الفطرية عن طريق استعمال عقولهم، وإما أنهم اكتشفوا ذلك ماداموا يأتون لاستعمال عقولهم؛ أي ما داموا يملكون عقولاً.

بافتراض الحالة الأولى، وهي أنهم اكتشفوا ذلك باستعمال عقولهم، فلا يكون هناك فرق بين البديهيات الرياضية والنظريات الرياضية المستنتجة من تلك المبادئ؛ لأن كليهما تم اكتشافه عن طريق العقل. فكلاهما مساو في الفطرية للآخر⁽¹⁶⁾. لكن الفلاسفة الذين افترضوا وجود الأفكار الفطرية بالعقل، فهموا معنى الفطرية في كونها القدرة على اكتشاف الحقائق المجهولة من المبادئ أو القضايا التي هي معروفة بالفعل. وهكذا فالقول إن استعمال العقل يكشف للإنسان أفكاره الفطرية هو نفسه القول إنه يكشف له ما كان يعرفه من قبل. لأجل أن تكون الفكرة فطرية يجب أن نكون على وعي بها⁽¹⁷⁾.

أما في الحالة الثانية، بافتراض أننا نتفق - سلفاً - على القضايا حالما نأتي لامتلاك العقل، وفي هذه الحالة يرى لوك أنه موقف خاطئ؛ فالأطفال يمتلكون العقل قبل مدة من حصولهم على المعرفة البسيطة لمثل هذه القضايا التأملية. والأمر نفسه ربما يقال على الناس المتوحشين والأميين.

يقدم لوك كيفية الحصول على مثل هذه القضايا العامة المتفق عليها على النحو الآتي: في الأول تزود الحواس تلك الغرفة الخالية من النفس بالأفكار الخاصة، العقل يجعلها مرتبة وفق درجات، ثم تستقر في الذاكرة وتعطى لها أسماء، ثم إنَّ العقل يقوم بعملية أبعد تتمثل في تجريدها، ثم يتعلم استعمال الألفاظ العامة. وبهذه الطريقة يقول - لوك - يزود الذهن بالأفكار و اللغة. امتلاك الأفكار العامة واستعمال الألفاظ العامة يتطوران معاً، لكن هذا

لا يعني - بأي حال من الأحوال - أنّ هذه الحقائق هي أصلية بالنسبة للعقل أو ناشئة عنه. معرفة بعض هذه الحقائق تأتي مبكرة جداً في العقل، لكنّها دائماً تتكون من أفكار مكتسبة. يملك الطفل في الأول الإدراك الحسي، ثم يكتشف الفهم الاختلافات والتشابهات بينها حتّى قبل استعمال العقل، ليستنتج أن طريقة الحصول على المعرفة لا يثبت بأي حال من الأحوال فطرية الأفكار أو المعرفة⁽¹⁸⁾.

وباختصار، لا وجود لقضايا عامة هي محل اتفاق كل الناس؛ وأنّ كل الناس يملكون اتفاقاً على حقيقة فطرية إذا كانت هذه الحقيقة واحدة؛ بحيث يكون كل إنسان على وعي بها، وواحدة بحيث تكون دائماً مقبولة لدى الكل، وواحدة بحيث تكون دائماً حاضرة في العقل قبل كل تجربة⁽¹⁹⁾. أي شيء يوجد في العقل يجب أن يكون مدركاً، كما سيكون من المستحيل أن تكون هناك حقيقة فطرية ولا تكون مدركة ومعروفة، وما دام أنّ هناك حقائق فطرية يجب أن تكون هناك أفكار فطرية، ولا وجود لحقيقة في العقل لم تكن قط محل تفكير فيها. لا نستطيع أن نبرهن من حجة الاتفاق العام على معرفة فطرية تلك المبادئ، ولا أن ندعي أسبقية لمعرفة تلك المبادئ. معرفة تلك المبادئ كما هي مجردة، من الواضح، تأتي لاحقاً (بعدياً)، الإحساس والمعرفة والرؤية بأنّ اللون الأحمر ليس هو الأبيض له الأسبقية في الزمان على معرفة مبدأ عدم التناقض - مثلاً - إضافة إلى ذلك حجة الضرورة والوضوح الذاتي هي من الضعف بمكان حجة الاتفاق العام⁽²⁰⁾.

تتعلق هذه المناقشة السالفة بالمبادئ التأملية الفطرية، ليختبر لوك لاحقاً القضايا الأخلاقية، ويصل إلى النتيجة نفسها؛ فهي أيضاً قضايا لم تكن قط محل اتفاق عام. إنها تماماً بمنزلة المبادئ التأملية. بالإضافة إلى أنّ المبادئ الفطرية العملية يفترض أنّها تدفع الإنسان إلى السلوك وليست مجرد غاية للتأمل. ويستدرك لوك لاحقاً أنّه صحيح أنّ هناك بعض الميول الطبيعية التي تؤثر على سلوكنا، يقول لوك: " أعترف أنّ الطبيعة وضعت في الإنسان رغبة في السعادة ونفوراً من الألم، وهذه في الحقيقة مبادئ عملية فطرية، تستمر في التأثير على أفعالنا من دون توقف.. وهذا ما هو ملاحظ عند كل الناس وفي مختلف الأعمار.. لكن هذه الميول الرغبة في الخير وليست انطباعات تخص الحقيقة و الفهم (لا تتعلق بالمعرفة)، أنا لا أرفض هذه النزعات الطبيعية المطبوعة على عقول الناس.. "

(21). ويضيف بعد ذلك: " أن تكون هذه المبادئ فطرية يجب أن تكون واضحة بذاتها ولا تحتاج لأي برهان آخر " (22)، والحقائق العملية ليست من هذا النوع . فعندما نطرح التساؤل الأخلاقي لماذا ينبغي علي أن أفعل هذا أو ذاك، تكون عندها الإجابات جد مختلفة وأحياناً تكون متناقضة، فما هو خطيئة عند بعض الناس هو طاعة عند الآخرين .

إذا قلنا إن الأفكار الفطرية مشوشة بالأفكار المسبقة و التربية والعادة، فمن الواضح جداً، بالنسبة إلى لوك، أن مبادئنا الأخلاقية تعود في مصدرها إلى العقل، أو إلى التربية التي نحصل عليها من الآخرين، أو من آراء الأصدقاء حولنا ومن عادات الدولة التي نعيش فيها. يعتقد لوك بقوانين أخلاقية خالدة وغير متغيرة، ولكنها لا تعرف بكونها فطرية، كما أنها ليست مغروسة في العقول (23). فإننا نتخلى بذلك عن حجة الاتفاق العام، مادامت هذه العناصر متغيرة ونسبية، وإذا قلنا إنه لا يمكن أن تلمس فيجب أن نعرث عليها عند كل البشر على حدّ سواء. وبصورة أجلي عند الأطفال والناس الأميين. ويخلص لوك أيضاً إلى أن المبادئ العملية هي الأخرى مشتقة من التجربة، وهي بذلك مبادئ مكتسبة، بالنسبة إلى الورقة البيضاء فإنها يخط عليها أي حرف كما يقول (24). والعادة في هذا أعظم قوة من الطبيعة. وعليه فإن ما ذهب إليه " هاربات أف شاربري " *Herbert of Cherbury* في كتابه *De Veritate* هو خاطئ بالضرورة - بحسب لوك - عندما برهن على وجود خمسة مبادئ عملية معروفة فطرياً عند الكل. ولوك يرى من السهولة بمكان أن نرفض هذا الموقف (25).

لا وجود لحقائق فطرية، سواء كانت تأملية أم عملية، حتى الأفكار المركبة هي مكتسبة وليست أصلية. فماذا يعرف الأطفال مثلاً عن الأفكار التي تكوّن مبدأ الهوية؟ يؤكد لوك نفس الاعتراضات ضد فكرة الله التي يعطيها ديكرت كل تلك الأهمية. إذا كانت هذه الفكرة فطرية، إذن يجب أن يكون كل واحد على وعي بها، ويملك التصور نفسه لله. لكن الواقع لا يثبت ذلك فهناك من لا يؤمن بالله، وهناك من لديه تصور يختلف عن تصوري له، كما نجد تصورات مختلفة عن الله وفي البلد نفسه. وحتى لو كانت فكرة الله كلية فلا تعني بالضرورة أنها فطرية، ولو كانت مطبوعة على العقل لشكلت الموضوع الأول للمعرفة البشرية.

إنّ فكرة الله فكرة مكتسبة عن طريق التفكير والتأمل، كما لا يمكن أن تكون فكرة الله جوهرًا؛ لأنّه لا وجود لفكرة الجوهر على الإطلاق، ولا تشتق من أي مصدر من مصادر المعرفة التي حدّدها لوك، وهي الإحساس والتأمل. يقول "لوك": "إننا نحصل على جميع أفكارنا من التجربة" ففيها تقوم كل معرفتنا وملاحظتنا سواء انصبت على الموضوعات الحسية الخارجية، أو على عمليات العقل الداخلية التي ندركها ونتأملها، والتي تزود أذهاننا بكل مواد التفكير " (26).

لا يقصد أي شيء بلفظ الجوهر حينما نتأمل مصادر معرفتنا، إنّه مجرد افتراض مجهول لا نعرف ما هو، ولا نملك عنه فكرة متميزة أو حتى إيجابية، هو الحامل المفترض للأفكار التي نعرفها (27)، في العقل يقوم بتجميع عدد من الأفكار البسيطة التي تظهر معاً باطراد كوحدة، والتي تعرف بلفظ خاص، وتؤلف ما يعرف بتصوير الجوهر؛ فنحن عندما لا نستطيع أن نتخيل قيام تلك الأفكار وحدها نفترض ذلك الحامل المجهول ليسنده، إذن، هذا التصور للجوهر لا يملك قيمة تفسيرية، هو شيء ما مجهول (28).

وبإيجاز لهذا الموضوع، لا وجود لشيء فطري. العقل في البداية لوحة بيضاء [a tabula Rasa]، أو غرفة مظلمة [a dark chamber]، أو خزانة فارغة [an empty cabinet]، وكل المفاهيم التي نملكها مشتقة من التجربة. لكن سؤالنا الأهم في هذا المقام هو من قصده لوك بهذا الهجوم؟

2-2- من يقصد لوك بهجومه على المبادئ الفطرية؟

لمن يوجه لوك هجومه؟ من يكون في ذهن لوك وقصده بالنقد من خلال المبادئ الفطرية؟ هل هناك خصوم محدّدون في ذهن لوك هم من أقرّوا بتلك المبادئ التي رفضها في كتابه الأول؟ هل يعدّ ديكارت الخصم، كما هو شائع الآن لدى الدارسين، الذي قصده لوك بالضبط؟

هذه الأسئلة ظلت معلقة ونوقشت مطولاً، أمّا الإجابات عنها فمازالت متعدّدة و مربكة إلى حدّ ما إلى يومنا هذا (29). وإن كانت، فلن تخرج عن مجموعة من الخصوم المحتملين اختلفت حولها التأويلات؛ فقد اختلف النقاد في العصر الحديث في تأويلاتهم

حول المقصود في هجوم لوك على الأفكار الفطرية، منهم من اعتبر ديكارت وأتباعه، ومنهم من أوّل ذلك ليربط الهجوم بأفلاطونية كمبردج والمبشرين بتعاليمها في إنجلترا، والفلاسفة القدماء السكولائيين.⁽³⁰⁾ مثلاً يؤكد " جيبسون " *Gibson* انتشار مذهب الفطرية في القرن السابع عشر والعلاقات التي تربطه بمذهب قوانين الطبيعة، ويستشهد بديكارت وأفلاطونية كمبردج⁽³¹⁾ لكنّه - بحسب آرون - كان أكثر حذراً في عبارته، ومع ذلك كان يعتقد أن لوك لو كان في ذهنه مجموعة خاصة لفكر في أساتذته بالجامعة في ذلك الوقت، كما هو واضح من الكتاب الأول من عمله.

في حين يسمي " ويندلباندي " *Windelband* ديكارت وأفلاطونية كمبردج. يفترض " ريفو " *Rivaud* ديكارت و السكولائية وهاربارت أف تشاربري. في حين يؤكد " المراخت " *Lamrecht* أن هجوم لوك كان موجهاً ضد أفلاطونية كمبردج. لكن " فون هرتلينغ " *Von.Hertling* يؤكد بشكل قاطع أن الهجوم لم يكن المقصود منه أفلاطونية كمبردج ككل⁽³²⁾.

الأکید أنّ الآراء الأكثر شيوعاً في تاريخ الفلسفة تجعل من ديكارت الخصم من وراء هجوم لوك من بين عديد الآراء. وبودنا هنا أن نناقش بعض التأويلات المختلفة علناً نستجلي بعض الغموض الحاصل في هذه القضية، محاولين التركيز على تأويلين متباينين لهجوم لوك على المبادئ الفطرية.

1- التأويل الأول: وهو التأويل الشائع، ويرتكز على أنّ مقصود لوك من هجومه على الأفكار والمبادئ الفطرية كان ديكارت والديكارتية، وهذا الموقف لا يتبناه طرف واحد، لكننا أثّرنا أن نأخذ نموذجاً يتعلق بمقال مهم للكاتب والفيلسوف الأمريكي " فرانكتيللي " *Frank Thilly* ⁽³³⁾ (1914/1865) أستاذ بجامعة " ميسوري " *[Missouri]* يدافع فيه عن النظرة التي تجعل من فلسفة لوك فلسفة قائمة بذاتها، وفلسفة ناقدة بالأساس لكل ما يرتبط بديكارت، وعلى وجه الخصوص مذهب الأفكار الفطرية، وذلك من خلال مقال نشره في مجلة " مراجعات فلسفية " *[Philosophical Review]*⁽³⁴⁾ الذائعة الصيت، والتي كتب على صفحاتها كبار الفلاسفة وقتها، أمثال " وليام جيمس "، و " جون ديوي " ..فما القراءة التي قدمها لكي يثبت أنّ المقصود بهجوم لوك فيما يتعلق بالمبادئ الفطرية

كان الفيلسوف ديكارت بالذات وفلسفته؟ وأي تصور من التصورات المتعددة التي قدّمها ديكارت للأفكار والمبادئ الفطرية كانت مثار تركيز لوك في نقده؟ لماذا لم يذكر ديكارت قط - على الأقل - في كتابه الأول الذي يخصّه لرفض الأفكار والمبادئ الفطرية من كتابه العام المشهور بكتاب "الفهم البشري"؟ كل هذه الأسئلة نحاول أن نجيب عنها من خلال تتبع الأفكار الواردة في المقال من جهة، والنصوص التي نستشفها من كتابات "ديكارت" وكتابات "جون لوك" نفسه من جهة أخرى دون الاكتفاء بهذا المنحى. وللتذكير فإنّ هذا المقال، الذي نعتد عليه في قراءتنا، يعدّ منذ ذلك الوقت مرجعاً أساسياً يعود إليه كثير من الدراسات عن الجدال بين الفطري والتجريبي أو بين ديكارت ولوك.

يحاول صاحب المقال الردّ على البعض في نظرتهم التي يؤيدون فيها القول بأنّ مذهب الأفكار الفطرية الذي عارضه لوك لم يكن بالنظرية التي أيدها ديكارت، ومن ثمّ فهجوم لوك الشهير على مبدأ المبادئ والأفكار الفطرية، في الكتاب الأول، لم يكن موجهاً ضد ديكارت، كما يبدو أن العلاقة بين المفكرين لم تكن علاقة تعارض، بل إن واقع الأمر يبيّن أن لوك يعدّ، بوجه من الوجوه، أحد أتباع الفيلسوف العظيم ديكارت.. وبالمقابل هناك من يخفّف من حدّة هذه النظرة ويصرح بأنّ لوك ربّما يشير إلى ديكارت والديكارتيين، وإلى أفلاطونية كمبردج. لكن هذه الرؤية بصورتها تبدو لي - يقول الكاتب - أنها خاطئة، وهذا ما سأحاول تفنيده في الصفحات التالية⁽³⁵⁾.

يعترف صاحب المقال بأثر ديكارت في اهتمام لوك بالفلسفة، لكنّه يؤكد أنّ تلك العلاقة لم تكن على الإطلاق علاقة اعتماد، ويبدو أنه نحنا نحو التجريبية الإنجليزية منذ بداياته الأولى. على كل حال، قام لوك في فلسفته على الأساس البيكوني في معركته ضد مذهب الأفكار الفطرية، وديكارت كان - دون شك - الخصم الذي وجّه له هجومه. لكن يجب ألا نفهم أن كل حجة خاصة من نقاش لوك موجهة مباشرة وبالضرورة ضد تأكيدات متطابقة في كتابات ديكارت .

وعلى الرغم من أنّ كاتب المقال يقدم لنا صورة عامة تغطي ما يحتمل أن يكون المقصود بالهجوم، لكنّه يجعل من ديكارت الخصم المحدّد في ثنايا المقال. ولهذا نراه يقدم هذه الصورة بقوله: إنه يجب أن ندرك جيداً الوقائع التالية: في "مقالة في الفهم البشري"

يخاصم لوك: أولاً - وبالأساس، المبادئ الأساسية لديكارت، ونتائجها الضرورية التي لم تستتج دائماً. ثانياً - تعاليم المدرسة الديكارتية. ثالثاً - كل من قالوا بالأفكار الفطرية، وعلى الخصوص "أفلاطونية كمبردج"، وممن وجه لهم انتقاداته مثل "هاربارت أف شاربري" [Herbert of Cherbury] الذي اقتبس لوك مواقفه ورفضها، و"هنري مور" [Henry More]، و"رالف كودورث" [Ralph Cudworth]، و"ثيوفيلوس جال" [Theophilus Gale]. رابعاً - كل الحجج الممكنة للأفكار الفطرية⁽³⁶⁾.

يقول مؤلف المقال إن لوك يهدف أساساً بنقاشه للأفكار الفطرية بمبادئ الفيلسوف ديكارت، ويفهم الأفكار الفطرية تماماً كما أوردها ديكارت في أعماله الرئيسية، على الرغم من أن ديكارت قد عدّل من نظريته هذه. التعارض بين الفيلسوفين - بحسبه - عام وشامل؛ فهما يختلفان في المبدأ، ولذلك نجده يختبر العقلانية عند ديكارت ليرى مدى عظمة الخصومة بين المفكرين.

يرفض ديكارت كل معرفة نحصل عليها عن طريق الحواس؛ فنحن نعرف الأشياء فقط من خلال التفكير الواضح والمتميز. الحواس لا تجعلني أعرف ما هو الشيء بقدر ما أعرف من خلالها كيف يؤثر فينا ذلك الشيء. النص الذي اعتمد عليه مؤلف المقال هو المثال الشهير الذي قدّمه ديكارت في كتاب التأملات - التأمل الثاني - المعروف بمثال "شمعة العسل"⁽³⁷⁾. قطعة شمعة العسل التي أمامي لا شيء منها يبقى على الإطلاق ممّا ألاحظه بواسطة الحواس عندما أقربها إلى النار. يقول ديكارت: "إنّ ما وقع منها تحت حواس الذوق أو الشم أو البصر أو اللمس أو السمع قد تغيّر كلّ، في حين أنّ الشمعة نفسها باقية"⁽³⁸⁾، ما الشمعة بالضبط؟ هي التي لا أدركها بحواسي أو بخيالي .. لا يمكن إدراكها إلاً بالفكر ". علاوة على هذا، كل أولئك الذين أكدوا أنّه لا وجود لشيء في العقل ما لم يكن أولاً في الحواس، يجب أن يتذكروا أن وجود الأفكار الفطرية لا يمكن أن تتبع من الحواس⁽³⁹⁾. لا يمكن الثقة في الحواس، ومن ثم كل معرفتنا تنطلق من العقل الذي يجعل من وجود بعض المبادئ الفطرية ضرورياً⁽⁴⁰⁾.

يقول ديكارت في المبادئ: "أمّا الحقائق التي يرد عنها شيء من التنزيل (الوحي) فليس ممّا يتفق مع طبع الفيلسوف أن يسلم بصحة شيء لم يتحقق منه، ولا أن يركن إلى

الثقة بالحواس؛ أي أن يكون اطمئنانه إلى ما تلقاه في طفولته من أحكام هو جاء أكثر من اطمئنانه لما يقتضي به العقل الناضج" (41)، أمّا في مقال عن المنهج فيقول: "ولكن هنا حاولت أن أكثف النظام التالي: أولاً حاولت أن أجد على العموم المبادئ، أو الأسباب الأولى لكل شيء الموجودة أو التي يمكن أن توجد في العالم، بدون أخذ بعين الاعتبار غاية أي شيء ماعدا الله نفسه الذي خلقها، وأيضاً بدون استنباطها من أي مصدر آخر سوى من أصول الحقائق الموجودة بصورة طبيعية في أذهاننا" (42).

إذن، المعرفة عند ديكارت تتأسس على الأفكار الفطرية. إذالم تكن هناك أفكار فطرية فلن تكون هناك معرفة ممكنة من دون شك. قيام التجريبية يعني رفض ضرورة، وبشكل قاطع، هذا التأكيد. فالهدف الأساسي والأول يجب أن يكون في رفض الأفكار الفطرية. هذا الرفض تعهد به لوك في كتابه الأول من مقالاته في الفهم البشري المعروف بـ "الأفكار الفطرية". وقبل محاولة إثبات أن المعرفة لن تكون ممكنة إلا من خلال التجربة يسعى لوك إلى تحطيم المذهب الديكارتي بالذات في الأفكار الفطرية ويقول "من الضروري بالنسبة لي أن أقدم الاعتبارات التي أوجبت عليّ الشك في الأفكار الفطرية" (43). وبهذا بينما يفترض ديكارت وجود الأفكار الفطرية، يرفض لوك ذلك. يختبر مؤلف المقال ذلك بمحاولته كيف فهم ديكارت هذه الأفكار.

بالنسبة إلى ديكارت، التفكير هو جوهر العقل الإنساني؛ العقل جوهر مفكر، ذكرها تقريباً في كل كتبه الأساسية (المبادئ-المقال-التأملات)، وإذا ما فصلنا التفكير عن العقل فإننا بذلك نحطم طبيعته، ينقطع عن الوجود عندما ينقطع عن التفكير "أنا موجود مادامت أفكر؛ فقد يحصل أنني متى انقطعت عن التفكير تماماً انقطعت عن الوجود" و انطلاقاً من هذا يتبع أن العقل دائماً يفكر. لكن ما التفكير؟ يقصد ديكارت بالتفكير كل تلك العمليات فينا والتي نكون على وعي بها بصورة مباشرة وفورية، إنه الوعي الذاتي (وعي الذات بأحوالها). "أنا [شيء مفكر]، وما [الشيء المفكر]؟ إنه شيء يشك، ويفهم، ويثبت، وينفي، ويريد، ويتخيل، ويحس" (44). ويقول ديكارت في كتاب المبادئ أيضاً: "أقصد بلفظ الفكر كل ما يختلج فينا بحيث ندركه بأنفسنا إدراكاً مباشراً. ومن أجل هذا لا يقتصر مجال الفكر على التعقل والإرادة والتخيّل، بل يتناول الإحساس أيضاً" (45). ماهية العقل،

إذن، تتمثل في التفكير الواعي، ومن ثم يجب أن يكون العقل على وعي بكل شيء يحدث بالعقل وينتمي إليه. والفكرة هي شيء ما حاضر في الذهن، ومن ثمّة يكون من اللزوم أن يكون العقل على وعي بأفكاره⁽⁴⁶⁾. يرسم ديكارت هذه الخلاصة التي انتهينا إليها عندما يشير إلى أنّه يفهم بلفظ الفكرة صورة أي تفكير عن طريق الإدراك المباشر الذي يكون على وعي بنفس ذلك التفكير. أي كل فكرة ليست إلاّ تفكيراً يقصد موضوعاً معيناً.

عندما ننظر إلى مختلف أنواع التفكير نجد أنّ بعضاً من الأفكار فطرية يقول ديكارت: " .. ولكي يتيسر لي سبيل النظر في هذا، دون إخلال بنظام التأمل الذي رسمته لنفسي [...] أقول لا بد هنا من أن أقسم خطرات نفسي أجناساً، وأن أنظر في أي من هذه الأجناس يقع الخطأ والصواب على جهة التحديد. من خواطر نفسي ما يكون أشبه بصور الأشياء، وهذه وحدها يطابقها اسم " الفكرة " على التحديد؛ مثال ذلك أن أتمثل إنساناً، أو غولاً، أو السماء، أو ملكاً، أو الله نفسه. ومنها أيضاً ما يكون له صور أخرى؛ فإنّي -مثلاً- حين أريد، أو أخاف، أو أثبت، أو أنفي، إنّما أتصور دائماً شيئاً هو كالحامل لفعل ذهني، ولكنني أضيف أيضاً شيئاً آخر بهذا الفعل إلى الفكرة التي لديّ عن ذلك الشيء؛ وهذا الضرب من الخواطر بعضه يسمى إرادات أو أهواء وبعضه يسمى أحكاماً... [لكن من بين هذه الأفكار] بعضها يبدو مفطوراً فيّ، وبعضها غريباً عنّي ومستمد من الخارج، والبعض الآخر وليد صنعي واختراعي " ⁽⁴⁷⁾.

في محاولته لإثبات أطروحته في أن لوك نقد وخصّ ديكارت بالذات، يذكر كاتب المقال تساؤل ديكارت الذي يقول فيه لا أعرف إلى الآن الأصل الحقيقي للأفكار؛ ربّما كلّها فطرية، أو كلّها عارضة، أو كلّها من صنعي أنا، لا بد من معيار آمن لذلك⁽⁴⁸⁾، ثم يتساءل: كيف يمكن إثبات وجود أفكار فطرية؟. وفق استدلالاته يقول ديكارت إنّني أجد نفسي مثلاً فكرة حقيقية أكثر من الأفكار الأخرى، فكرة من خلالها أتصور كائناً إلهياً خالداً لانهائياً، مطلق القوة، والعالم بكل شيء كخالق لجميع الأشياء. ومن الطبيعي والوضوح أن منطق السبب الطبيعي يقول لي إنّ كل شيء له علّة، وهذه العلّة أو السبب الكافي هو أكثر حقيقة من النتيجة؛ لأنّ ما هو أكمل... لا يمكن أن يكون تابعاً أو معتمداً على ما هو أقل منه كما لا⁽⁴⁹⁾. ثم يتساءل عن علّة فكرة الله. إنّما أن أكون أنا مصدرها أو الله نفسه أو الأشياء

الأخرى الخارجة عني. لست أنا مصدر فكرة الإله الخالد لأنني (أنا) الجوهر المتناهي، ومن ثم (أنا) أقل كمالاً وحقيقة من الجوهر الكامل، وليست الأشياء الأخرى الخارجة عني مصدر هذه الفكرة أيضاً؛ لأنها أقل حقيقة مني أنا. ومن ثمّة لن تكون محدثة إلا عن طريق كائن لا نهائي وهو الله، مطلق القوة والعلم.. هو من طبع في نفسي هذه الفكرة الفطرية، ولن تصدر عن كائن آخر سوى الله ذاته. " إنّ فكرة جوهر لامتناه ما كانت لتوجد لدي [أنا الموجود المتناهي] إذا لم يكن قد أودعها في نفسي جوهر لامتناه حقاً" (50). وقول ديكارت في الفقرة الواحدة والثلاثين من كتاب التأمّلات: " بقي عليّ أن أنظر على أي وجه اكتسبت هذه الفكرة عن الله: لأنّي لم أستمدّها من الحواس، ولم تعرض لي أبداً على غير ما أتوقع، كما هو مألوف في أفكار الأشياء المحسوسة عندما تعرض هذه الأشياء أو تظهر أمام الأعضاء الخارجية للحواس، ثمّ إنّها ليست كذلك من اختراع ذهني، أو صنع وهمي؛ لأنّه ليس في مقدوري أن أنقص منها أو أزيد عنها شيئاً. وإذن، فلا يبقى في مقدوري أن أنقص منها أو أزيد عليها شيئاً. وإذن، فلا يبقى بعد ذلك إلا أنّ هذه الفكرة ولدت ووجدت معي منذ خلقت، كما ولدت الفكرة التي لدي عن نفسي" (51).

لكن كما توجد أفكار فطرية توجد أيضاً حقائق فطرية *innate truths* كمبدأ العلية مثلاً. لا يمكن أن ينظر إلى هذه المبادئ كأشياء موجودة، ولكنها كمبادئ عامّة، أو كبديهيات خاصة للعقل. يقول ديكارت في كتاب المبادئ: "... في أنّ كل موضوعات معرفتنا ننظر إليها إمّا على أنّها أشياء أو حقائق أشياء، أو حقائق خالدة ليست شيئاً خارج فكرنا" (52)، ويضيف في فقرة لاحقة: "... وقد بقي أن نتحدث عمّا نعرفه من قبيل الحقائق: فمثلاً حين نرى أنّه لا يمكن إيجاد شيء من العدم لا نعتقد أنّ هذه القضية شيء له وجود في الخارج أو خاصية لشيء، ولكن نأخذها كحقيقة أبدية قائمة في فكرنا، ونسميها معنى شائعاً بين الناس أو مبدأً بديهياً. وإذا قلنا إنّ من المحال أن يكون الشيء ولا يكون في وقت واحد، وأنّ ما كان لا يمكن ألا يكون قد كان، وأنّ من يفكر لا يمكن أن يخلو من الوجود حين يفكر، وقضايا أخرى كثيرة من هذا القبيل، كانت هذه حقائق فحسب وليست أشياء موجودة خارج فكرنا..". (53).

بالنسبة إلى كاتب المقال، فإنّ ديكارت لم يعط إحصاء شاملاً ومنهجياً لمثل هذه الأفكار والحقائق الفطرية (54). لكن كل ما نهتم به هنا هو ما يفهمه ديكارت بهذه الأفكار

والحقائق الفطرية. وكمثال عن الأفكار الفطرية يذكر على وجه الخصوص فكرة الله وفكرة النفس؛ وكمثال عن الحقائق الفطرية يذكر مبدأ السببية الذي من خلالها يثبت ديكارت وجود الله، ومبادئ الهوية وعدم التناقض، وكل الحقائق الضرورية، وهذه ما تسمى بالبديهيات.

عندما نقارن هذه النصوص فيما يتعلق بالأفكار والحقائق الفطرية عند ديكارت بالعبارة التي يبدأ بها لوك بحثه، فمن الصعب أن نستبعد ديكارت من قائمة خصوم لوك، كما يؤكد المؤلف. يقول لوك في عبارته: "يجزم بعض الناس بأنّ في الفهم مبادئ فطرية،... كما لو أنّها طبعت على عقل الإنسان منذ أن وجد وجاء بها إلى العالم" (55). واحد من بين الذين ذكرهم لوك هو - من دون شك - ديكارت؛ لأنّه يؤكّد بالضبط ما يرفضه لوك. في الغالب يستعمل الفيلسوفان المصطلحات نفسها في هذا الجانب، نحن نعرف بالفعل ما يفهمه ديكارت بالأفكار الفطرية، وسنرى أن لوك له التصور نفسه لتلك الأفكار، ويطبق باستمرار التعريف، فيرفض بذلك أي وجود لشيء فطري.

يستعرض مؤلف المقال الموقف، الذي يجعل من ديكارت أقل تطرفاً في مذهب الأفكار الفطرية، فيقول: إنّه من المؤكّد - في كثير من الأحيان - أن مؤسس العقلانية يقصد بلفظ الفطرية: "أنّ العقل يحمل في ذاته القدرة على تكوين مثل هذه الفكرة"، وبناء على هذا تمّ استخلاص نتيجة، وهي أنّ هجوم لوك على مبدأ الأفكار الفطرية لم يكن مباشراً ضد ديكارت. مثل هذا التأويل بالنسبة لـ "فرنك ثيلي" لم يفت الفيلسوف الإنجليزي أيضاً⁽⁵⁶⁾. ومع ذلك يشير لوك إلى أنّه إذا كان المقصود بوجود الأفكار الفطرية كقدرة طبيعية على معرفة هذه الأفكار الفطرية واكتسابها، فمن الحماقة أن يكون مثل هذا تمييزاً بين ما هو فطري وما هو غير فطري؛ لأنّه في هذه الحالة كل أفكارنا فطرية. يقول لوك "إنّ الناس لديهم ميل فطري لاكتسابها حالما يجربون، ويعلمون استخدام عقولهم؛ لأنّه بهذا المعنى تكون كل فكرة فطرية، ولا يكون هناك تمييز بين ما هو فطري وما هو غير فطري" (57).

صحيح أنّ ديكارت يتكلم عن الفطرية وكأنّه يقصد بها القدرة على الاكتساب فقط، فهو يقول، مثلاً في فقرة سريعة ومختصرة في معرض ردّه على اعتراضات الفيلسوف

الإنجليزي " توماس هوبز " : " ..عندما نقول فكرة ما فطرية فينا، فإنّي لا أقصد بذلك أنّها دائماً حاضرة في تفكيرنا، ولكنّي أقصد ببساطة أنّنا نملك في ذاتنا القدرة على اكتسابها " . لكن التساؤل الذي يثيره مؤلف المقال، ومن خلاله يشكك في موقف ديكارت هذا، هو: هل هذه العبارة هي موقف ديكارت وأسلوبه؟ لتكون إجابته لو كانت كذلك ما كانت هناك اعتراضات . يجب ألا ننسى أن تصور ديكارت للفكرة الفطرية، لا تتفق مع المذهب المنصوص عليه في أعمال ديكارت الرئيسية، ولا تتفق مع المبدأ الديكارتي الذي يجعل من الوعي مكوناً لجوهر العقل⁽⁵⁸⁾.

ويضيف أنّ لوك حارب مذهب الأفكار الفطرية من خلال استدلال منطقي للنتائج انطلاقاً من مقدمات ديكارت نفسه، ومقارنة هذه بالوقائع. حجة لوك الكاملة تتأسس بذاتها على قضية أنّه مهما يكن في العقل، يجب أن يكون العقل على وعي بها. المفاهيم التي هي فطرية في العقل يجب أن تكون معروفة للعقل ومعروفة دائماً. لكن لا يوجد أي أحد لديه باستمرار مثل هذه الأفكار، ولذلك لا وجود للأفكار الفطرية. وفي الأخير يلخص كاتب المقال نتيجة الخلاف بين لوك وديكارت بإيجاز على النحو الآتي:

بالنسبة إلى ديكارت فإن ماهية العقل تكمن في التفكير، والتفكير هو الوعي، ولذلك يجب أن يكون العقل على وعي ما بداخله. من هذه القضية يرسم لوك الخلاصة المنطقية، وهي أنّ أي فكرة أو حقيقة فطرية يجب أن تكون معروفة دائماً وفي كل عقل. ومادام الآن لا وجود لمثل تلك الأفكار والمبادئ، يستنتج لوك أكثر من ذلك، أنّه لا وجود لشيء فطري، والنفس هي لوحة فارغة تكتب عليها التجربة حروفها. يخلص لوك منطقياً إلى هذه النتيجة انطلاقاً من المقدمات الديكارتية نفسها. فإذا كان الوعي الذاتي يؤلف ماهية النفس، فإنّه على حق. ومع هذا يرفض لوك نفسه هذه المقدمة . فليس الحال هو أنّ الإنسان دائماً يفكر، إذا كانت ماهية العقل تكمن في التفكير الواعي. يقول ديكارت: إنّنا لدينا قليل من الحق أن نفصل التفكير عن العقل كما نفصل الامتداد عن الجسم. عن هذا يجيب لوك ويقول: " ..هناك رأي يفيد بأنّ النفس تفكر دائماً، وتملك الإدراك الحقيقي للأفكار في ذاتها، طالما هي موجودة، وهذا التفكير الفعلي كما هو غير قابل للفصل عن النفس، تماماً مثلما يتعدّد الامتداد الفعلي عن الجسم " .⁽⁵⁹⁾ ويستدرك لوك ذلك بقوله: إنّّه لا يستطيع

"..تصور أنّها أكثر ضرورة للنفس أن تفكر دائماً مثل ما نتصور الجسم أن يتحرك دائماً، إدراك الأفكار من النفس ليس ماهيتها بقدر ما هي مسألة تتعلق بالوجود فحسب. هذا باختصار موقف "فرنك ثيللي" الصريح من أنّ لوك قصد صراحة بهجومه على المبادئ والأفكار الفطرية ديكرات والفلاسفة الديكراتيين.

2- التّأويل الثاني: يحاول أن ينزع عن ديكرات والديكراتية سهام النقد التي وجّهها لوك وأنهم ليسوا هم من قصدهم لوك بهجومه، لكن من خلال خصوم آخرين أو تأويلات مختلفة أخرى. وقبل أن نخوض في مبررات أنصار هذه الوجهة دعنا نؤكد حقيقتين: أولاً- لوك لم يذكر البتة وبصراحة ديكرات في هجومه على الأفكار الفطرية، وذكر أطرافاً أخرى. ثانياً- على النقيض من ذلك، يعترف لوك بصراحة بالإرث الديكراتي وفي توجيهه واهتمامه بالفلسفة. انطلاقاً من هذه الحقائق الصريحة، دعنا نختبر تلك الاستنتاجات التي استخلصها أنصار التّأويل الأول من قراءتهم لهجوم لوك على المبادئ والأفكار الفطرية من خلال ما قدّمه دارسون آخرون للقضية.

دعنا نركز على نماذج لدراسات قدّمها بعض الفلاسفة، ولتأخذ منهم الفيلسوف الإنجليزي "ريتشارد آرون" **Aaron Richard** (1901-1987) الذي حاول في عمله المهم عن لوك معرفة مصدر الإجابات المربكة عن المقصود بهجوم لوك، ولماذا ألصق هذا الهجوم على الأفكار الفطرية بديكرات والديكراتيين على وجه الخصوص. ولذلك تساءل: ما علة هذا الإرباك؟ في واقع الأمر ليس من الصعب، يقول آرون، معرفة مصدر هذا الإرباك، ولفهم ذلك علينا أن نستعيد الإجابة التقليدية التي قدّمت عن سؤال كهذا، وكانت مقبولة طوال منتصف القرن التاسع عشر ونهايته، وقد حدّدت الإجابة منذ ذلك الوقت في أنّ الخصوم الذين وجّهت لهم سهام النقد، فيما يتعلق بالمعرفة الفطرية، هم بالتأكيد: ديكرات والديكراتيون⁽⁶⁰⁾. لكن عندما أدرك العلماء حجم ما يدين به لوك لديكرات في قضايا كثيرة، وأعادوا اكتشاف العناصر العقلية في كتاباته، وعندما اختبروا أيضاً موقف ديكرات الحقيقي في الأفكار الفطرية، أحسّوا وقتها أنّ الجواب المقدم لم يكن بالمرضي. لكن إذا لم يكن المقصود من الهجوم في كتابه الأول الديكراتية، فمن يكون المقصود إذن؟

بالعودة إلى كتابات لوك فإنَّ الشخص الوحيد الذي ذكره لوك، كما أشرنا سابقاً، هو اللورد "هاربارت أف تشاربري" [Herbert of Cherbury] (1583-1648)، ولكن - بحسب رتشارد آرون - من الصعوبة أن نعدّه الخصم الرئيسي. تبدو الإجابة الأولية أنَّها تتعلق بأفلاطونية كمبردج كخصوم مفترضين في ذهن لوك من هجومه، والأکید أنَّ البعض منهم كانوا فعلاً من مؤيدي المعرفة الفطرية، على الرغم من أنَّ البعض الآخر منهم كانوا معارضين لها. من يقصد لوك بهجومه بالضبط؟ هل يمكن أن نحدّد أكثر من هو المقصود؟ ممكن - بحسب آرون - ولكن فقط من خلال العودة إلى الإجابة التقليدية وإعادة تأكيدها وعرض حججها ربما يقودنا البحث إلى معرفة ذلك.

في المقام الأول فإنَّ الهجوم استهدف ديكرات والديكارتين، وأيضاً استهدف المفكرين الإنجليز والأساتذة الأخلاقيين واللاهوتيين في عصره، ومع هذا، ولكي ندرك أكثر، يرى آرون - أنَّ هناك ضرورة لعرض الإجابة التقليدية التي رسخت في الأذهان عن الخصوم المحتملين وهم ديكرات وأتباعه، ربّما تدلّنا بصورة أفضل على من يقصده لوك بهجومه.

أهم ما في هذه الإجابة أنَّها أسست من طرف فيلسوفين، هما: ليبنتز (1646-1716) وفولتير (1694-1778). ربط ليبنتز هذا الهجوم بالديكارتية سنة 1696 في أول ورقة قصيرة عن لوك، وأيضاً في مقالاته الجديدة سنة 1703؛ حيث افتتح المناقشة ككل في الأفكار الفطرية وذلك بتصنيف لوك مع أتباع غاسندي كطرف مناقض للديكارتية، مع العلم أنَّه مدافع شرس عن الأفكار الفطرية، وبذلك يصنّف ضمن طرف هو الآخر، ويضع بذلك الخصومة في الأفكار الفطرية ككل بين هذين الطرفين. الرؤية ذاتها تبناها فولتير، في رسالته عن لوك في "الرسائل الفلسفية" يثني فولتير على لوك على حساب ديكرات، يأخذ بالنصوص التي يبرز فيها نجاح لوك في خصومته (المفترضة) مع ديكرات، و بالمقابل ينتقي وجهة نظر ديكرات المفرطة في الأفكار الفطرية⁽⁶¹⁾. ويستشف من كل ذلك أنَّ لوك كان يقصد بهجومه ديكرات والديكارتين. لكن ماذا لو نسب إلى ديكرات النصوص الأخرى مثل ما ورد في "Notes Against a Programm". كل الدارسين لديكرات يدركون أنَّ نظرية الأفكار الفطرية عنده غير محدّدة وغامضة. وما ورد من نقد لرجيوس في المرجع

السابق يختلف عمّا فهم عن ديكارت وأورده فولتير، خاصة فيما تعلق بالأطفال الذين خلقوا في هذا العالم وهو مزودون بأفكار فطرية منذ ولادتهم⁽⁶²⁾.

هناك رأي آخر، فيما يتعلق بالإجابة، يتمثل في أنه من الصعوبة أن نحدّد خصوم لوك المقصودين بالهجوم. فقط لكي يجعل آراءه أكثر وضوحاً وكأنّه بدأ بوضع رجل من تب، وتقديمه لنظرية المعرفة بطريقة حية وملموسة، التي لا وجود لأي فيلسوف أيدها في الواقع ورفضها على وجه مقنع. وهذا الرأي تبناه بعض الدارسين مثل الفيلسوف الألماني "أرنست كاسيرر" *Cassirer*. لكن من المستبعد أن يخلق لوك خصوماً وهميين والهجوم عليهم خدمة لفلسفته⁽⁶³⁾.

أما "كامبل فريزر" فكان قلقاً فيما يتعلق بالدفاع عن حاجة الإنسان في المعرفة إلى نوع من المبادئ العقلانية المفترضة، كان يعتقد أنه من المحتمل أن يكون ديكارت هو من يقصد لوك عندما كان بصدد كتابة عمله [الكتاب الأول]، لكن يوضح أنّ نظرية الأفكار الفطرية عند ديكارت هي من الإتقان أكثر مما ناقشه لوك. يشير فريزر إلى أنّ لوك، وبناء على قراءة سطحية لبعض نصوص فلاسفة أفلاطونية كمبرج أمثال: مور، و كودوورث، قد وجد تعبيرات تبرز ملامح شكل الفطرية التي نسبها لوك في بداية عمله إلى (أنّ هناك رأياً شائعاً). ومن ثم لم يتوان فريزر عن نقد لوك في هجومه على الفطرية في شكلها البسيط والساذج، وفي فشله في إدراك حاجة الإنسان إلى مبدأ الفطرية لكي يضع اعتباراً لعلاقات الإنسان بالإلهي والالانهائي⁽⁶⁴⁾.

بعض الدارسين جانبوا الصواب - بحسب الفيلسوف المعاصر جون يولتون *John Yolton* (1921-2005) صاحب كتاب "جون لوك وطريق الأفكار" - في اقتراحهم أنّ مذهب الفطرية كان له الانتشار الواسع بين الناس في ذلك الوقت، لكن لا أحد من نقاد لوك قد أشار إلى كيف أمكن لذلك الانتشار أن يكون مقبولاً⁽⁶⁵⁾. عندما نوقف البحث بعيداً عن الخصوم الذين شملهم هجوم لوك، ونركز اهتمامنا على أسلافه المباشرين والمعاصرين له في إنجلترا، فإننا نجد أنّ مذهب المعرفة الفطرية قد اعتبر - بشكل أو بآخر - ضرورياً في الدين وفي الأخلاق منذ السنوات الأولى للقرن حتّى نهايته، وبداية القرن اللاحق. مذهب

الفطرية خضع عموماً لتحويلات من شكله البسيط الساذج إلى نسخته المعدلة . الشكل الأول للمذهب يعتبر الله كاتباً أو طابِعاً على العقل أو النفس بعض الأفكار والتعاليم منذ الولادة، أو حتىّ الضمير يعدّ كذلك؛ الذي بواسطته يدرك الإنسان ما هو صحيح من الخاطئ مستقلاً في ذلك عن العادة أو التعلم، وذلك لتوجيه الحياة وتأسيس الأخلاق، وذلك على الرغم من أننا قد لا نكون على وعي بتلك المبادئ الفطرية أو بذلك الضمير حتى سن النضج. أمّا الذين تساءلوا: كيف يمكن إثبات وإدراك أنّ هذه المبادئ مبادئ فطرية؟ فالجواب دائماً كان جاهزاً وسريعاً وهو الاتفاق العام. هذا المذهب في شكله هذا فقد عدل تماماً قبل سنة 1688 وحتى بعدها، ومن ثمة لم يعد لدعوى أنّ المبادئ مطبوعة منذ الولادة في العقل أي اعتبار ولم تعد مدرجة. لكن الشكل الساذج للنظرية يعود في الظهور حتى وقت متأخر من السنوات الأولى من القرن الثامن عشر، لقد أخذت المبادئ الفطرية ذريعة لترسيخ وتأسيس الأخلاق والدين، ولتزويد الإنسان بالأسس اليقينية والأكيدة لحياة فاضلة. من الصعب إذن، أن نشك في أنّ هجوم لوك كان موجهاً ضد هذا التقليد الثابت عند الإنجليز في الأخلاق و التفكير الديني الذي كتب فيه لوك ذلك. كما يحتمل ألا يكون لوك غافلاً عن أنّ ديكارت وبعض الديكارتيين قد احتفظوا بالمذهب نفسه تماماً مثل الكثير من معاصريه الإنجليز. كان لوك - بالأساس - مهتماً بإيجاد حلول للمشكلات التي نشأت في مجتمعه الخاص. لم يكن اهتمامه من خلال النقد بعيداً عن ذلك⁽⁶⁶⁾. ولم يكن المقصود منه ديكارت والديكارتية بالضبط.

لقد أخذ مذهب الأفكار الفطرية أشكالاً عدّة . كثير من الكتاب الذين نادوا بهذا المذهب صراحة رأوا أنّهم لا يقصدون بذلك أنّ الأطفال ولدوا وهم مزودون بأفكار جاهزة وكاملة لكي تستخدم. حتى ولو أنّ هؤلاء قد استخدموا مصطلحات للتعبير عن المذهب في صورته الصارمة والمقبولة⁽⁶⁷⁾. ويمكن أن نعثر على البديل للنظرية في أي كتيب في المرحلة الأولى من القرن لتعالج الأخلاق والضمير ووجود الله، أو القانون الطبيعي. وكان الأخلاق، من وجهة النظر هذه، لا تتأسس إلا على هذه المفاهيم الفطرية والطبيعية. فالقانون الطبيعي يتطلب ضميراً طبيعياً لكي يجعل الإنسان قادراً على إدراك القوانين التي أودعها الله .

وهكذا، كما يعدّ لوك تجريبياً بالنظر إلى منهجه النفسي في معالجة مشكلة المعرفة، وأيضا عندما ننظر إلى التجربة بنوعيتها كمصدر لكل أفكارنا، وإلى العقل كصفحة بيضاء، وأنه لا وجود لأفكار فطرية، يمكن أن يعدّ أيضاً من جانب آخر عقلاً عندما نجدّه يؤمن بأن كل الأشياء في نهاية المطاف تكون مفهومة، وأن الحقيقة تكمن وراء التجربة، والمعرفة أو الإدراك نحصل عليها فقط عن طريق الأفكار. للحصول على معرفة الأشياء لا يتأمل العقل شيئاً منها. فبالإضافة إلى العقل ذاته، و ما هو حاضر في الفهم، يجب أن يكون شيئاً آخر كعلامة أو تمثيل لتلك الأشياء، وهذه هي الأفكار⁽⁶⁸⁾. كما يقبل بكثير من الأفكار من مصدر غير الإحساس والتأمل مثل فكرة الله، فكرة الجوهر، و فكرة العلاقة..ويقتر أيضاً ببعض المبادئ العقلية المشتركة وبالقانون الطبيعي، هذا الأخير يكون معروفاً - بحسب لوك- عن طريق النور الطبيعي؛ أي يمكن للإنسان أن يحصل على المعرفة بمفرده دون مساعدة من الآخرين.⁽⁶⁹⁾

هذا هو الفهم الذي قدّمه هؤلاء لكي يبرروا قرب لوك من ديكارت، هذا القرب الذي ينعكس على العلاقة التي ينبغي أن تفهم ضمن هذا الإطار، ولا يمكن أن تؤسس صورة الجدل بين الفطري والتجربي على تأويلات مستندة إلى استنتاجات من قراءة سطحية لنصوص ديكارت المتنوعة والمختلفة.

أبعاد الجدل بين الفطري والمكتسب و امتداداته

لم ينته الجدل بين ما هو فطري وما هو مكتسب بهجوم لوك على المبادئ والأفكار الفطرية في كتابه الأول من " الفهم البشري "، كما لم ينته بوفاته، بل استمرّ بشكل تجاوز نطاق المعرفة و حدودها.

يمكننا أن نشير في هذا السياق إلى أنّ الحركة العامة تجاه الدين الطبيعي في أوروبا، جعلت من هجوم لوك و انتقاداته أكثر قبولاً، لكن بالمقابل، معظم نقّاده، فيما ذهب إليه من رفض المبادئ والأفكار الفطرية، كان في أذهانهم الاختيار واضحاً: إمّا الأفكار والمبادئ الفطرية، وإما نسبة القيم الأخلاقية وحتى الدينية. هذا الاختيار جعل كل من قرأ في ذلك الوقت هجوم لوك في أزمة في القرنين السابع عشر و الثامن عشر، ما عدا أولئك الذين

انصبَّ اهتمامهم على الأشكال الجديدة للدين الطبيعي، التي تزايدت شعبيتها مع نهاية هذا القرن. فالعقلانية في أذهانهم حلّت محلّ الفطرية كقاعدة للأخلاق والدين. وبالنسبة للتقليديين، رفض الأساس الفطري للقواعد الأخلاقية والقوانين يفتح باب الشكّية والإلحاد⁽⁷⁰⁾. وهكذا، فالأمر لم يعد محصوراً في نطاق المعرفة و الإستمولوجيا، بقدر ما تجاوزها إلى الأخلاق والدين.

"وليام شارلوك" *William Sherlock* في " مقال عن سعادة الإنسان الصالح"، وسم عمل لوك " الفهم البشري" بالإلحاد؛ وذلك بسبب رفضه للأفكار الفطرية⁽⁷¹⁾، في حين يقول "كارول" *Caroll*: "إنّ مذهب عدم وجود الأفكار والمبادئ الفطرية واحد من المبادئ الكبيرة للمحدثين. في الجانب المقابل، جادل "هنري ليتون" *Henry Layton* ضد "شارلوك"، تعليقاً على موقفه، في عدم وجود ضرورة بين رفض الأفكار الفطرية ووجود الله، إنّ رفض الأفكار الفطرية لا يعني رفض وجود الله.. (كما) أنّه لا وجود لأفكار في عقل الله، وكل الأفكار تأتي من خارج العقل" ⁽⁷²⁾. ويستمر هذا الصراع بهذه الحدة إلى منتصف القرن الثامن عشر، لكن لا يمكن للدين و الأخلاق البقاء، أو حتّى الإفلات من النسبية المطلقة (تلك النسبية التي رأى كثير من النقاد أنّها تجد أساسها في عمل لوك، وعلى أسس أخرى أيضاً)، دون النداء المستمر للحروف المطبوعة على العقل؛ أي دون الفطرية. الدين والأخلاق يميلان الخطوط العريضة لنظرية المعرفة.

القضية الحقيقية من كل هذا الصراع لم تكن تتعلق بحقيقة الأفكار والمبادئ الفطرية أو عدم حقيقتها؛ أي لم يكن الصراع معرفياً. والمشكلة الحيوية بين لوك ونقاده في هذه المسألة كانت تتعلق بأسس الأخلاق والدين وقواعدهما. والسؤال الإستمولوجي الذي يتعلق بأصل أفكارنا لم يكن مشكلة نظرية معزولة، بالنسبة للوك أو لمعاصريه، إنّ سؤال متكامل لمشكلات الحياة العملية⁽⁷³⁾.

الفيلسوف الديكارتي "ليبتز" *Leibez* ألف مقالات "جديدة في الفهم البشري" كردّ مفصل على هجوم لوك على المعرفة الفطرية، لكنّه - برأينا - يتجه قليلاً، مقارنة مع الآراء التي ذكرناها آنفاً، نحو المعرفة. تأليف ليبتز لكتابه جاء ليلقي الضوء على الكثير من

المسائل الفلسفية؛ إذ يرفض أي تعارض بين ما هو فطري وما هو مكتسب، ويشير فيها إلى أن معارفنا فطرية ومكتسبة معاً. حجة ليبنتز تتأسس على بعض المطالب الأساسية، منها: أولاً- نستطيع معرفة الأشياء دون أن نكون على وعي بها، وهذا عكس ما قرره لوك سابقاً. ثانياً- هناك تمييز مهم بين الحقائق الضرورية والحقائق العرضية؛ فالحقائق الضرورية هي حقائق قبلية وفطرية، بينما حقائق الواقع هي حقائق بعدية مكتسبة.

استعمال ليبنتز لمصطلح فطري بمعنى خاص يجعله يقرّ بأن بعض الأفكار والحقائق، وليس الكل، هي التي تكون فطرية فقط⁽⁷⁴⁾. فما المعيار الذي يفهم به ليبنتز مصطلح فطري؟ يقدم ليبنتز مثلاً عن قضية "الحلو ليس هو المر"، هذه القضية لا تعدّ، بنظره، فطرية، والسبب أن الإحساس بما هو حلو وما هو مرّ يأتي من الحواس الخارجية⁽⁷⁵⁾. إن فكرتي الحلو والمر فكرتان مختلطتان، لا تأتيان من العقل نفسه. أمّا فكرة الله مثلاً فهي فطرية "إنني أسلم باستمرار ولا أزال أسلم بفكرة الله الفطرية التي يسلم بها ديكارت"، وهي فطرية ليس بسبب أن كلّ الناس لديهم فكرة واضحة عن الله، بل يمكن للعقل أن يصل إلى هذه الفكرة عن طريق التأمل في ذاته⁽⁷⁶⁾. مع أنّه لا ينكر أن تكون التجربة ضرورية للالتفات إلى الأفكار والحقائق الفطرية.

كانط يحاول أن ينهي هذا الفصل بين ما هو فطري وما هو مكتسب في فلسفته النقدية من منطلق معرفي إبستمولوجي خالص برأينا، وفي نطاق ما يعرف بالصراع التجريبي العقلي. فالمعرفة لا تتأسس على التجربة وحدها، ولا تتأسس على العقل وحده، يقول كانط: "تبدأ كل معرفتنا بالتجربة... ومع ذلك لا تنبثق بأسرها من التجربة"⁽⁷⁷⁾، وبالمقابل التصورات الذهنية التي تصنّف كتصورات ذهنية محضة موجودة في الفهم بصورة قبلية. فما ينقله الحس إلينا، هو المادة، وما هو موجود في عقولنا من مبادئ أولية، هي الصورة بلغة "أرسطو"، ووظيفة الفلسفة النقدية هي العمل على تبيان ما يرد إلينا من الخارج من جهة، وما نضيفه على المعطيات الحسية من صور أولية، صورتنا الزمان والمكان. ثم القوالب الذهنية، وهي المقولات التي تصبّ فيها المعطيات الحسية. والقبلية لا تعني بالضرورة الفطرية، فكل فطري هو قبلي ضرورة، لكن ليس كل قبلي فطرياً.

في مقال له ضد "إبرهارد" **Eberhard** (1739-1809)، يقول كانط: "يقبل النقد بصورة مطلقة عدم وجود تمثّلات فطرية أو مغروسة بالمرّة.. سواء تنتمي إلى الحدس أو إلى الفهم.. فهي تعتبر كلّها مكتسبة" وعلى وجه الخصوص المقولات، فهي كلّها مكتسبة وليست فطرية⁽⁷⁸⁾. ويمكننا أن نستنتج أكثر من حجة تبين اعتراض كانط ضد ما يعرف بالفطرية، أهمها حجة ذكرها في النصوص بين سنتي 1771 و بداية 1780، التي تقوم على أساس منهجي، فالقبول - بحسب بتفسيرات خارقة للطبيعة لأصل التصورات، مع توافر التفسير الطبيعي - يعد منطلقاً غير صحيح من الناحية المنطقية والمنهجية. وحجة عدم الضرورة، التي ذكرها في "نقد العقل الخالص" وغيرهما.

كل التصورات ذهنية؛ لأنها ترتبط بالذهن، وهي تصورات معطاة بصورة قبلية، مثل: الوحدة، الجوهر، العلة، الممكن، الفعل⁽⁷⁹⁾. وتكوين المقولات هو نتيجة أفعال ذهنية تلقائية. "قدرتنا العقلية لن تستيقظ إلى العمل، إن لم يتم ذلك من خلال موضوعات تصدم حواسنا فتسبب من جهة حدوث التصورات بصورة تلقائية"⁽⁸⁰⁾. هذا يعني أن محتوى المقولات لا يعتمد على التجربة.

نصوص كانط بين سنتي 1770 وبدايات 1780 تشير إلى أنّ المقولات هي: "تصورات مجردة للتأمل". ويضيف إنّ المقولات مجردة "من قوانين العقل"، وإنّ هذه "القوانين أصيلة في العقل". ولفظ [أصيلة في العقل] لا ندرى مدى موافقتها للفظ فطرية.

يبقى الفصل بين ما هو مكتسب وما هو فطري قائماً حتّى وإن خفت حدّته؛ لأنّه سيظل إشكالية، والإشكالية من خصائصها أنّها قائمة على الإحراج ولا تنتهي إلى حل نهائي، ومهما كانت الصورة التي آلت إليها المناقشة مع ليبنتز وعلى وجه الخصوص مع كانط، فإنها لم تستطع تجاوز هذه الثنائية بين ما هو فطري وما هو مكتسب. وعلى الرغم من انسجام حجج كانط، فإن أفضل ما ينظر إلى مناقشته هو أنّها معالجة من نوع آخر لمفهوم الفطرية.

خاتمة

تّمّا سبق تقديمه من آراء وتأويلات فيما يتعلق بعلاقة الفطري بما هو مكتسب، أو علاقة لوك بديكارت، وذلك من خلال مناقشة لوك وهجومه على المبادئ الفطرية التأميلية والعملية، يمكننا أن نستنتج جملة من القضايا، هي خلاصة ما نعتقد أنه مقبول بالنسبة إلينا في هذا السياق:

- إنّ العلاقة التاريخية بين الفيلسوفين اللذين أسسا لأهم تيارات الفلسفة في العصر الحديث، إنّما أسست - بنظر الكثير في مجملها - على قضية رفض لوك للمبادئ الفطرية؛ أي على الكتاب الأول فقط من الفهم البشري، ومن ثمة كان الحكم على تلك العلاقة حكماً عاماً من موقف جزئي. فكان لوك بهذا المعنى رافضاً لفلسفة ديكارت ككل وهو من قصده بالهجوم على الأفكار الفطرية مع الديكارتية.
- كثرة التأويلات وتعددها في هذا المجال يعني أنّها قضية لم يفصل فيها بعد، وأنّ مسألة الفطري والمكتسب مسألة إشكالية، بل ظلّت بين الأخذ والردّ، وتعدّد من هاجمهم لوك بحسب التأويلات يعود إلى عدم وجود نصوص صريحة في كتاب "الفهم البشري"، عدا ما ذكره لوك في الكتاب الأول، وهو فيلسوف أفلاطونية كمبردج، ولكن أيضاً في سياق محدّد جداً كان بصدد ردّه على قضية وردت في كتاب [الحقيقة] لشاربري.
- نحن ندرك أولاً أنّ كتابات ديكارت كان لها عظيم الأثر على اهتمامات لوك بالفلسفة، فقد بدأ دراسة الفلسفة في أكسفورد، أمّا اهتمامه بها فقد نشأ نتيجة قراءته لـ "ديكارت" أكثر مما كان قد تناوله في أكسفورد، ويعترف صراحة أنّ الكتب التي ألهمت إعجابه الكبير بديكارت هي مؤلفات "ديكارت" .. ويعترف أيضاً أنّه كان على وعي بالإرث الديكارتية.
- وندرك ثانياً أنّ هناك عناصر كثيرة تضمنتها فلسفة جون لوك هي من أساسيات فلسفة ديكارت مثل مفهوم الفكرة ودور الفكرة المحوري في المعرفة، وأيضاً أفكار ذات طابع ميتافيزيقي عقلي على شاكلة فكرة الجوهر، فعلى الرغم من نقد لوك

لأصل فكرة الجوهر فإنه لم يرفضها، فمادمننا - بحسبه - نؤمن بوجود كفيات أولية فلا بد، إذن، أن نؤمن بوجود حامل لتلك الكفيات أو نؤمن بجوهر مادي. وأيضاً فكرة الله، وفكرة العلاقة، ومبادئ القانون الطبيعي، وكلها أفكار تتجاوز حدود التجربة، كما أن يقبل بالقدرات الفطرية.

- فكرة المبادئ والأفكار الفطرية التي شن لوك هجومه عليها في كتابه " الفهم البشري " ليست بالفكرة التي قال بها ديكارت في مراسلاته مع الطبيب الهولندي [رجيوس]، وكأنّ ما نقده لوك يمثل نظرية الأفكار الفطرية الساذجة، التي تصور الأفكار والمبادئ الفطرية، ومنها فكرة الله وكأنّها موجودة ومغروسة كما هي حتّى عند الأطفال، وهي النظرية التي كانت سائدة عند أفلاطونية كميردج على وجه الخصوص، ومنتشرة في الفكر الإنجليزي الأخلاقي والديني. بينما أعطى ديكارت صورة أخرى لهذه الأفكار بوجه مختلف في رده على " رجيوس "، وكأنّه يقدم نظرية مغايرة لتلك التي نقدها لوك.

- لم يذكر لوك في هجومه على الأفكار الفطرية ديكارت قط، بل كل ما ورد من نصوص عن ديكارت من لوك هو ابتهاجه بقراءة الكتب الفلسفية التي أنتجها ديكارت على الرغم من قصور فائدتها العملية.

- وعلى ما سبق، فإن ما استنتجه البعض من أنّ لوك كان يهدف ديكارت بالأساس من هجومه، هو استنتاج - برأينا - مؤسس على تأويلات فقط وليس على نصوص صريحة، وهذه التأويلات إن ارتقت إلى مرتبة الصدق فتكون مساوية لتلك التي تذهب إلى أن هجوم لوك لم يكن المقصود به هو ديكارت بالضبط.

- الجدل بين الفطري والمكتسب وما دار حولهما من لغو، والتناقض بين النزعة الفطرية والتجريبية لا يؤيده البعض أمثال الفيلسوف " رسل " الذي يوصي بعدم استخدام هذين الوصفين (العقلية والتجريبية) بطريقة مفرطة في التحجر؛ ذلك لأنّ من أكبر العقبات التي تعترض طريق الفهم في الفلسفة [..] تصنيف المفكرين بطريقة عمياء مفرطة في الجمود، وفقاً لأوصاف ثابتة نطلقها عليهم. ومع ذلك فإنّ التقسيم المألوف ليس جرافياً، وإنما يشير إلى بعض السمات البارزة في كلا التراثين..

الهوامش والمراجع

- Fraser, Alexander Campbell: **Locke**, Edinburgh and London: William Blackwood and son, (1)
mdccxc , p:104.
- Locke, p: 12 . (2)
- Aaron, Richard: **John Locke**, 2nd Ed, Oxford press, 1955. p: 8. (3)
- Copleston, Frederick: **A history of philosophy**.V:7, part I, New York : Image book, p:76. (4)
- Yolton, John. W: **John Locke and the way of ideas** , oxford: At The Clarendon Press, P:64. (5)
- John Locke, P:83. (6)
- John Locke, P:84. (7)
- Locke, John: **An Essay Concerning Human Understanding**, Bk 1, ch.1, N.1, collated (8)
by: Fraser, Alexander Campbell, V.1, Oxford: The Clarendon Press, p:37.
- An Essay Concerning Human Understanding, Bk.1, Ch 2, N3/4, pp: 40-41. (9)
- An Essay Concerning Human Understanding, Bk.1, Ch 1. N.1, pp:37-38. (10)
- John Locke, p: 84. (11)
- An Essay Concerning Human Understanding, Bk1, Ch .I, N.5, p: .40 (12)
- An Essay Concerning Human Understanding, Bk1, Ch 1, N5, p: 40. (13)
- John, Locke , p:84. (14)
- Thilly, frank: "Locke's relation to Descartes", **Philosophical Review**, V:IX, 1900, Schurman (15)
.J.g, and Creighton.J.E , New York: Macmillan Company, 1900, p:606.
- An Essay Concerning Human Understanding, Bk1, Ch 1, N8, pp: 42-43. (16)
- " Locke's relation to Descartes", p:607. (17)
- An Essay Concerning Human Understanding, Bk1, Ch 1, N15,p: 48. (18)
- An Essay Concerning Human Understanding, Bk1, Ch 1, N.24, p: 58. (19)
- John Locke, p: 86. (20)
- An Essay Concerning Human Understanding, Bk1, Ch 2, N.3, p: 67 (21)
- An Essay Concerning Human Understanding, Bk1, Ch 2, N.4, p: 68. (22)
- John, Locke, p: 86. (23)
- An Essay Concerning Human Understanding, Bk1, Ch 2, N.22, p: 87. (24)
- John, Locke, p:86. (25)
- An Essay Concerning Human Understanding, B:II, ch:1, sect:2, PP.121-122 (26)

- An Essay Concerning Human Understanding, B:II, ch: XXIII, N:2, P :391. (27)
- " Locke's relation to Descartes", p: 611. (28)
- John Locke , p : 88. (29)
- Locke and the way of ideas, pp: 26-27. (30)
- Gibson, James: Locke's Theory of Knowledge and its Historical Relations, Cambridge: At the University Press, 1917, pp:30-33. (31)
- John Locke, p : 88. (32)
- مؤرخ فلسفة أمريكي من أعماله : مقدمة في الأخلاق(1900)، عملية الاستدلال الإستقرائي (1904)، تاريخ الفلسفة(1914). كما ترجم عديد الأعمال منها على وجه الخصوص " مقدمة في الفلسفة " لفريديريك بولسن (1895)، تاريخ الفلسفة لألفرد فيبر (1897). (33)
- "Locke's relation to Descartes", P :596. (34)
- "Locke's relation to Descartes", p:597. (35)
- "Locke's relation to Descartes", p : 598. (36)
- ديكار، رينيه : التأملات في الفلسفة الأولى، ترجمة: عثمان أمين، القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2009، ص: 107-105. (37)
- التأملات في الفلسفة الأولى، ص105. (38)
- انظر، ديكار، رينيه : مقال عن المنهج، ترجمة: محمود محمد الخضري، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000. (39)
- " Locke's relation to Descartes", p: 599. (40)
- ديكار، رينيه : مبادئ الفلسفة، ترجمة: عثمان أمين، القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ص: 107. (41)
- مقال عن المنهج، القسم VI. (42)
- An Essay Concerning Human Understanding, Bk.I, Ch 1, IV, N25 . (43)
- التأملات في الفلسفة الأولى، ص 99-101 . (44)
- مبادئ الفلسفة، ص 57. (45)
- "Locke's relation to Descartes", p: 601. (46)
- التأملات في الفلسفة الأولى، ص 137-135. (47)
- "Locke's relation to Descartes", p: 602 (48)
- أنظر : التأملات في الفلسفة الأولى، ص: 144، والمبادئ، الفقرة 17، ص63. (49)
- التأملات في الفلسفة الأولى، ص 153. (50)
- التأملات في الفلسفة الأولى، ص 162-163. (51)

- (52) مبادئ الفلسفة، ص 48.
- (53) مبادئ الفلسفة، ص 49.
- " Locke's relation to Descartes", p :602 (54)
- An Essay Concerning H. U, Bk. 1, ch.1, N.5, p:121. (55)
- "Locke's relation to Descartes", . p : 604 (56)
- An Essay Concerning H. U, Bk. 1, ch.1, N.5, pp:40-41. (57)
- "Locke's relation to Descartes", p: 605. (58)
- An Essay Concerning Human Understanding, Bk.II, Ch 1, N.9, pp: 127-128. (59)
- John Locke, p : 88. (60)
- John Locke, p:90. (61)
- John Locke, p :91. (62)
- John Locke, p : 89. (63)
- John Locke and the way of ideas, p: 27. (64)
- John Locke and the way of ideas, p : 28-29. (65)
- John Locke and the way of ideas, p:30. (66)
- John Locke and the way of ideas , p:31. (67)
- Raymond, (George): **A Study of Locke's theory of knowledge**, Wilmington, Ohio, 1919 , p:6. (68)
- (69) انظر ما كتبه الباحثة الإسبانية المعاصرة Jerry Gael Esperanza عن " جون لوك والقانون الطبيعي بالأمس واليوم: تحليل نقدي ". في عمل متميز مقدم لنيل درجة الدكتوراه بجامعة [نفاررا] الخاصة . . Navarra . . Pamplona 2006
- John Locke and the way of ideas , pp: 64-65. (70)
- John Locke and the way of ideas, p : 60. (71)
- John Locke and the way of ideas , p : 69. (72)
- John Locke and the way of ideas , pp: 68-69. (73)
- (74) كويلستون، فردريك: تاريخ الفلسفة، المجلد الرابع، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى ليبنتز، ترجمة: سعيد توفيق و محمود سيد أحمد، . مراجعة: إمام عبد الفتاح إمام، القاهرة: المركز القومي للترجمة. ط1، 2013. ص: 423.
- (75) تاريخ الفلسفة، المجلد الرابع، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى ليبنتز، ص: 423.
- (76) تاريخ الفلسفة، المجلد الرابع، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى ليبنتز، ص: 427.
- (77) كنت، عمانويل: نقد العقل المحض، ترجمة: موسى وهبة، بيروت: مركز الإنماء القومي، ص: 45.
- (78) انظر المقال المهم الذي أورده أستاذ الفلسفة الحديثة " ألبرتو فانزو " " Alberto venzo " بجامعة ورك

" Leibniz on Innate Ideas and Kant on the Origin of the Categories " : بإنجلترا بعنوان (Worwick)

وقد أورد هذه النصوص .

(79) نقد العقل المحض ، ص : 89 .

(80) نقد العقل المحض ، ص : 45 .